تكريم الاستاذ ضومط

قدم الاستاذ جبر ضومط القاهرة في الشتاء الماضي مستشفياً فاحتفل بهِ تلاميذهُ الكثيرون مثل خليل ثابت بك وامين افندي مرشاق واميل افندي زيدان والدكتور وديع برباري بك ونجيب صروف بك. وقبيل عودتهِ من القطر المصري اقام حضرة الياس بك زياده صاحب جريدة المحروسة حفلة شاي بعد ظهر الخميس في ١٢ نيسان في منزلهِ في مصر تكريماً لهُ حضرها عدد كبير من اهل الفضل والادب

وبعد تناول الشاي والحلوى وقفت الآنسة «ي» الكاتبة النابغة كريمة صاحب الدعوة ورحبت بالحضور بخطاب نفيس نشرناهُ فيما يلي وقام بعدها الاستاذ ضومط وطلب ان يلطفوا بهِ فيكفوا عن مدحهِ واراد ان يلقي كلمتهُ ليحول دون كلام غيرهِ فقاطعتهُ الآنسة «ي» وطلبت ان يبقي كلمتهُ الى نهاية الاحتفال فامتثل طلبها وعندئذٍ وقف فؤاد افندي صروف احد المحررين في هذه المجلة والقى الخطبة المنشورة بعدُ وتلاهُ سليم افندي عبد الاحد فالقى قطعة شعرية شائقة بعث بها السيد مصطفى الرافعي من طنطا. وعقبهُ اسعد افندي خليل داغر فانشد ابياتاً رقيقة. ثم وقف صاحب السعادة احمد زكي باشا والقى كلمة لطيفة عن المحتفل بهِ. وعقبهُ خليل بك مطران فانشد بيتين من الشعر لنكتة قالها سعادة احمد زكي باشا وعقب عليها بكلمة في فضل المعلم وفضل الكاتب. وحذا حذوهُ نور الدين بك مصطفى فتلا اربعة ابيات رقيقة. وقام الاستاذ السيد رشيد رضا وفاه بكلمة طيبة عن الاستاذ ضومط وفضلهِ كمعلم كبير. ثم القى رفيق افندي جبور المحرر في المحروسة ابياتاً من نظمهِ نوّه فيها بفضل المحتفِل والمحتفَل بهِ

وتلاهُ الدكتور منصور فهمي استاذ الفلسفة في الجامعة المصرية فقال ان ذكر الاستاذ ضومط مقرون في ذهنهِ بالسفير الذي كان يقدم البلاد المصرية فيأخذ التلاميذ منها الى دار العلوم في بيروت. وهنا وقف الاستاذ ضومط ثانية. فالقى كلمة طيبة في شكر المحتفين بهِ واثنى كثيراً على نبوغ «ي» ولقبها باميرة الكتّاب

ثم قام الدكتور يعقوب صروف وذكر بالفخر والاعجاب نبوغ تلميذه المحتفَل بهِ وكيف كان معلماً باحق معاني هذه الكلمة وتأسف لان كلة معلم لا تدل في

في العصر الحاضر على كل ما حوت من شرف وفخر مع ان المسيح الذي يدين بدينهِ سبعمائة مليون من البشر كان يلقّبهُ « بالمعلم » . وكانت خاتمة الحفلة كلمة وجيزة من حضرة لطفي بك السيد

خطاب الآنسة « مي »

ايها السادة : عند ما عهد اليَّ والداي ان اقوم امامكم بالواجب العذب واجب الترحيب والامتنان كنت اقرأ لماكس نورداو كتاباً ورد فيهِ رأي من الآراء المعروفة لهذا الكاتب . وهو قولهُ ان الشكر الذي يزعمونهُ اقراراً بجميل حاضر او سابق انما الغرض الصميم منهُ اقتناص جميل جديد . فاغرتني هذه المغالطة الشيِّقة ككثير من مغالطات نورداو وطفقت اقلبها على وجوه شتى لاتبين الغاية التي ادي اليها على غير معرفة مني — تلك الغاية المضمرة التي ما زلنا نطلبها بعد ان فاز منزلنا بتشريفكم لهُ وضمكم ساعة بين جدرانهِ السعيدة بحضوركم

اما الغاية الصريحة التي نسدي الشكر لاجلها فهي تفضلكم بتلبية الدعوة وحضور هذا الاجتماع الذي عقد باسم العلامة حبر افندي ضومط . وانما اردنا بهذا الاجتماع ان نزجي الى الاستاذ تحية يشترك فيها اصدقاؤهُ الذين نعموا بعطفهِ فقدروا ما فطر عليهِ من الصلاح والصدق والاخلاص . تحية يشترك فيها تلاميذهُ العديدون المنتشرون في القطر المصري — فضلاً عن الاقطار الاخرى — اعترافاً بما لهُ من يد في تخريجهم على حب اللغة العربية واتقانها ، على حب العلم وخدمتهِ ، على حب التخلُّق برضي الاخلاق وهو لهم في ذلك خير قدوة . تحية يشترك فيها كذلك اهل العلم وحملة الاقلام الذين عرفوهُ في كتبهِ اللغوية القيمة او فياسمعوا عنهُ من حديث فضلهِ فجاءوا يثبتون انهُ بينا تتناحر الامم باحتكاك الحاجات وتتنابذ الانساب بتنافر المطالب ، يظلون هم اهل العلم والقلم عائلة واحدة دواماً على استمداد لتوحيد الكلمة في كل ما هو تمجيد للفضل ، تقدير للكفاءة ، شحذ للعزائم ، وفي كل ما من شأنهِ أن يبعث في النفوس نوراً وحياة ونبلاً

بيد ان لديَّ امراً آخر اود ان افضي بهِ وقد اكتشفتهُ عند الاستاذ ضومط خلال الصيف الماضي . كان ذلك على قمة من قمم لبنان الشماء المشرفة على استدارة النواهق المتناسقة ، على الاكام والهضاب المترامية نحو الساحل ، على البحر البعيد

الفسيح وقد امتزج افقهُ الاقصى بسحب الغروب الملتهبة . كنا هناك تحت خيمة النزل في حلبة من الزائرين وامام مشهد المساء البنفسجي ، امام مشهد الشفق الرائع ، تعلمون ايها السادة ما يخالج النفس من توق عميق وصبابة الى ازمنة غير معروفة ، الى امكنة غير محدودة ، الى مدركات غير مدركة ، يحاول المرء ان يفسرها بحاجاته البشرية الوجيهة ويحاول الاحاطة بها بمكتسباته الانسانية الميسورة . وانما هو يحاول ذلك ليتسنى لهُ ان يرجو ، يحاول ذلك ليتسنى لهُ ان يستخدم في سبيل امر ما ، ما اوتي من ذكاء ونشاط وقوة . عندئذٍ وتحت هذا التأثير دوت نفسي باسئلة تضطرب لها اليوم الشبيبة الشرقية اليقظى ، وقد ينطوي كثير منها تحت هذا السؤال الواحد : اين وطني ؟

اين وطني يا من تقدمتموني في حياة الامة فاناخ عليكم الدهر بكلكلهِ فما تركتم لي غير ميراث موزع الاجزاء مقطع الاوصال ؟ اين وطني ايها المتقاذفون بالحجج والادلة ، المتمادون في التأويل والتحريف حتى نسيتم في غضبكم الغرض الذي لاجلهِ تغضبون ؟ اين وطني ايها الجيل السائر امامي الطالب مني الخضوع والامتثال ولكنك لا تستطيع ان تنتحي لي في الحياة سبيلاً ؟ وها انا بين ترددك وترددي في عناء وشقاء ؟ اين وطني ايتها الارض التي انت هي وطني ، اين وطني ؟

وهنا لفتني عن سؤالي المتكرر مناقشة دارت حولي بين اثنين من الزائرين . مناقشة هادئة حصيفة ولكنها جادة جليلة الشأن . موضوعها يقظة الشرق وكيفية تنظيم الرابطة المعنوية بين اهل الشرق . فاحد الرجلين يقول بالعنصرية[1] والآخر يدعو الى القومية — العربية . الناظر الواحد يقول : انما اريد للشرق مناعة وكرامة ، وان لم يكن لذلك من سبيل سوى العنصرية — اي تغلب عنصر على عنصر او على عناصر — فليّ على العنصرية وأبي لم تمواهب ابناء الشرق وبعظمة كرمهم الموروث لاكون واثقاً بانصافهم في اعطاء كل ذي حق حقهُ . فيعترض الناظر الآخر قائلاً : كلاّ ! لقد اصبح الشرق اشرف من ان يقبل اهلهُ الانصاف والحرية . واذا شئنا ان نكون من ابناء الحياة فعلينا بالقومية بما تنطوي عليهِ من عوامل اللغة والاقتصاد والعلم والعطف والتفاهم الخ فنتبادل ضمنها الحقوق

(١) (المقتطف) اي تفوق اكبر العناصر في البلاد

والواجبات ، الحرية والمساواة ، لا تبرعاً ولا تسولاً ، بل بالحق الطبيعي المعطى لكل ذي مقدرة . فبالقومية وحدها نقيم صرح الشرق الجديد !

قد يُظن لاول وهلة ان الداعي الى القومية او التطور كما نقول بلغة هذا العصر — هو من الاقلية في بلادنا ، بينما المدافع عن العنصرية او المحافظ — كما نقول بلغة هذا العصر ايضاً — هو من الاكثرية . ولكن الواقع هو ان ذلك « المتطور » هو رجل من أكبر البيوتات الاسلامية في سوريا ، تلك البيوتات التي كانت الزعامة دواماً في يدها . اما المدافع عن العنصرية او (المحافظ) فكان هذا الاستاذ ضومط المسيحي الذي ترون

لذلك اضيف الى تلك التحية المشتركة تحية اخرى: أني احيي فيه الرجل الشرقي العصري الذي يحب بلاده لا لاجل ما يجني منها ويبتغي ، بل يحبها لانها هي هي شأن المحب العنيد الذي يستوي عنده الغنم والتضحية والعذاب والنعيم

قد تقولون ايها السادة ، ان ماكس نورداو صدق هذه المرة لو انا سألتكم ان تزيدوا اهتماماً بموضوع القومية الشرقية . واني لارضى — ارضى ان يقال ان وراء شكر اسديه انما ادعو الى الجمع بين الرأيين اللذين لا غنى لنا عنهما رأي المحافظة على كل ما عندنا من موروث نبيل ورأي احتضان كل مكتسب نافع . وتلك سنة الخليقة في جميع الموجودات ان لا تتم للكون غايته من جميع اجزائه الا بتتابع التبدل والمحافظة والتخلي والاكتساب . اني لاغتبط ان يترك فيكم هذا الاجتماع ولو بعض الرغبة في ان يتناول كل منكم هذا الموضوع بعطفه ، ويمحصه بمقدرته ، وينشره بتفوذه فيكون عاملاً في سبيل غاية عظيمة . وانما السعي لغاية عظيمة غاية في ذاته ورفعة ونوال

اما انت ايها الاستاذ المسافر فقداً عندما تجتاز الصحراء تمر بالعريش الذي يرونه الحد الفاصل بين مصر وسوريا فتراه وانت الشرقي الصميم يداً خضراء يد السلام والرجاء الجامعة بين القطرين رغم اهوال المفاوز وقحط الصحراء . وحسبك يا سيدي فخراً وفضلاً ان تواصل ما قمت به الى الآن وهو نشر اللغة الجميلة لغة القرآن وتأييد العلم والعرفان والدعوة الى الثقة التسامح ومحبة الاوطان . اه

كلمة فؤاد صروف

يتراءى لي ايها السادة ان للرأي العام بوجه عام وللصحافيين والمؤرخين بوجه

خاص ميلاً في الكثير من الاحيان الى الجور وعدم الانصاف في الحكم على ابطال الحروب الحقيقيين. يتغنى الشعب باسماء القواد العظام ويرفع لهم انصاباً في الساحات العمومية تخليداً لذكرهم وينشر الصحافيون صورهم في صفحات الجرائد الاولى ويطبعون اسماءهم بحروف تستلفت الانظار ويدوّن المؤرخ ذكرهم فيما يدوّنهُ من احاديث العصور واخبار الامم. ولا شك في ان الكثير من القواد جدير بهذا الاكرام والاحترام. على اني لا اذكر القائد مرة الاّ ويتجلى لي ضعفهُ وعجزهُ عن القيام باعماله العظيمة لولا مؤازرة ذلك الجندي الباسل المستهدف للخطر في ساحة الوغى المعرض نفسهُ في كل دقيقة لميتة من اشنع الميتات. ان هذا الجندي لجدير بان يشاطر ذلك القائد ثمرة الفوز الباهر والانتصار المجيد. وكأن الناس قد تنبهوا لهذا الامر بعض الشيء فقاموا بعد الحرب الكبرى يخلدون ذكرى الجندي المجهول. لكنهم ما اقاموا للجندي المجهول حفلةً لتكريم ذكره الاّ واقاموا للقائد حفلات وما رفعوا للجندي المجهول نصباً الاّ ورفعوا للقائد انصاباً. ولو جئنا نقسم ما نالهُ الجندي المجهول على ملايين الجنود الذين اشتركوا في احراز النصر الكبير لاصاب الواحد منهم جزءاً من ملايين او ما يقلّ.

كذلك نحن ابناء الدولة الفكرية نكرم الزعماء منا ونرفع الصوت بالثناء على الروّاد الذين يسيرون امامنا في الطرق الفكرية الوعرة فيمهدونها او يتقدموننا في المجاهل المظلمة فينيرون داجي ظلماتها. نحن نجلهم وهم بذلك جديرون ويا ليتنا نفعل ما يتعدى دائرة الشعور المجرد انهاضاً للهمم وتشجيعاً على مواصلة السير. ولكن كثيراً ما ننسى ذلك الجندي المجاهد في معارك التمدن والعمران الذي يدير في غرف التدريس سفناً مملوءة بالاماني الكبيرة والاحلام الذهبية والمكتنات العظيمة. ويترجم لعقول تلاميذه معاني الحياة السامية وواجباتها الكبيرة. والسعيد السعيد من يجمع بين القائد المعلم والجندي العامل. بين الزعامة الفكرية وصبر المعلم وطول اناتهِ وشرف خدمتهِ العالية بمنتها الغنية بفقرها — كما اجتمعت في موضوع اكرامنا الآن

بماذا اقيس فضلك يا استاذي الجليل؟ ؟ أبعدد تلاميذك المنتشرين في الاقطار وبما لك في نفوسهم من الاثر او في قلوبهم من المكانة؟

ومن ذا الذي يجرأ ان يقف ازاء الشخصية الانسانية وقفة العالم الفلكي بموازينه ومقاييسه ازاء الكواكب والسيارات يقيس افلاكها وابعادها واجرامها مع ما في وقفته تلك من الرهبة والروع ؟ بل من يستطيع اذا تجرأ على ذلك ان يقيس الاثر الذي تتركهُ الشخصية الواحدة في من يقع في دائرة تأثيرها ؟ من اذن يستطيع ان يقيس مالك من المقام في نفوس تلاميذك وما كان لك من التأثير في حياتهم — سواء كان ذلك في قاعة التدريس او في جمعية الانشاء والخطابة او في فضاء الجامعة او على منبر الوعظ والارشاد . لقد كنت مركزاً تفيض منهُ اشعة الحكمة والعرفان فتنير نفوساً لم تليث ان اصبحت مراكز جديدة بعد انفصالها عنك تشع الانوار وتهدي الحائرين

لذلك كانت دائرة تأثيرك لا تنتهي عند التلاميذ الذين درّست وارشدت بل هي دائرة تتسع على مرّ الزمان وستبقى كذلك الى ما شاء الله . تلك غبطة — واعظمها اعظم جزاء ينالهُ المعلم في الحياة — تلك غبطة تستكين لها نفسك اذ تشعر انك قضيت واجباً نحو هذا الشرق المحبوب

ام اقيس فضلك بما في روحك الفتية من نزعة للتجديد والتجدد واستمداد للانفلات من قيود التقاليد للتمشي مع العمران السائر على سنن النشوء والارتقاء. لانك تعلم ان اللغة جسم حيّ ويجب ان تنمو بنموّ ابنائها وان معاجمها تتسع واساليب التعبير فيها تتعدد كلما اتسع افق ادراكهم وتعددت وجهات نظرهم الى الحياة. فتخرج اللغة اذ ذاك عن كونها احدى المتحجرات او العاديات التي يصلح ان تعرض في المتاحف لا ان تستخدم في قضاء حاجات النفس والافصاح عن معاني الحياة

واذا كانت اللغة العربية كما هي في نظر الجميع الرابطة الوحيدة التي تربطنا معاشر الشرقيين ،وتسنّى لها ان تبقى حية بفضل ابنائها المجاهدين ترتوي من منابع الحياة لا ان تكتفي بالتقاط الفتات الساقط من مائدة الغير ،اذا صح ان لغتنا الشريفة جسمٌ حي وجارت الاجسام الحية بنموها فلك في ذلك فضل عظيم ومأثرة خالدة

ام اقيس فضلك بفضل كتبك وعددها وقد خرجت فيها عن الاساليب العقيمة في تدريس قواعد اللغة وعلومها . ووضعتها على نمط يتفق وعقل التلميذ فبدلاً من ان يكون كل اعتماده على الذاكرة صار اعتمادهُ في كتبك على قوى

الادراك والتمييز والحكم فكأنك اشفت الى علوم اللغة نزعة فلسفية سيكولوجية جعلت لها بين الطلبة طلاوة جديدة ومقاماً رفيعاً

ام اقيسهُ بتلك السيرة الصامتة الفعالة بليلها ، المفعمة باستقامتها ، المرشدة بانصبابها على العمل وتمسكها بالفضيلة المهذبة بما يلازمها من عطف الاب وصراحة الصديق

انت مسافرٌ غداً ايها الاستاذ الكريم فحين تقبل على تلك البلاد العزيزة وتشرف على الهضبة الجميلة القائمة في رأس بيروت وقد انبسط البحر امامها احتراماً لمقامها وقام صنين من ورائها على حراستها ، حين تشرف عليها القِ عليها تحيات خالصات ليس من ابنائها وخريجيها فقط ، ولا من ابناء لبنان وسوريا الذين انتشروا في طلب متسع للفكر الحرّ فرحبت بهم مصر وازلتهم على الرحب والسعة ، بل باسم المجلس النيابي للدولة الفكرية العربية ، الذي اتخذ هذه العاصمة عاصمة لهُ ، وهذه الدار ندوة يجتمع فيها ، باسمهِ حيّ جامعة بيروت الاميركانية لانها في النهضة الشرقية الحديثة مقاماً رفيعاً ومكانة لا ينازعها فيها معهد علمي آخر . اه

نظرة في الحياة

يعجب المرء إذ يرى أن ارتقاء الناس المادي يفوق الآن كثيراً ارتقاءهم الادبي . وذلك لانهُ كان من الواجب ان يكون رقي العالم الادبي مساوياً على الاقل لرقيهِ المادي ان لم يفقهُ . ووجه الغرابة في ذلك هو ان الناس مع اتساع نظرهم كثيراً وكلفهم بالبحث عن سعادتهم الدنيوية من قديم الزمان لم يوجهوا اكثر اهتمامهم الاّ الى كل ما يؤول الى رقيهم المادي فاخذت الاختراعات والاكتشافات في مختلف العلوم يتلو بعضها بعضاً مما اوصل العالم الى رقيهِ المادي الحالي العظيم. اما عنايتهم بترقية حالتهم الادبية فقد كانت قليلة ولذلك لم يقطعوا فيها شوطاً بعيداً حتى ان الكذب والرياء والانانية وغير ذلك من العيوب والنقائص لم تزل كما كانت في العصور القديمة منتشرة فيهم كثيراً . والحق يقال ان افراغ الناس جهدهم في ترقية حالتهم المادية وقلة عنايتهم باصلاح حالتهم الادبية وايصالها الى درجة الكمال مع ان سعادتهم تتوقف على رقيهم الادبي اكثر من توقفها على رقيهم المادي لمّا